مجلة كلية الآداب
"دوريَّةٌ – أكاديميَّةٌ – علميَّةٌ – مُحَكَّمةٌ"
عدد (٣٨) مارس ٢٠١٥م ص ص: ٣١٣ - ٣٢٣
جامعة سوهاج
كلية الآداب

التطورية كعقيدة شاملة

أحمد حمدي أحمد مصطفى (*)

يُعد ريتشارد دوكينز Richard Dawkins (١٩٤١-؟) من أبرز العلماء والمُنظرين الذين شغلوا ساحة البيولوجيا التطورية في عالمنا المعاصر. ترتكز رؤيته التطورية على الانتخاب الطبيعي على مستوى الجين. وإذ يصبح الجين وحدة لعملية الانتخاب الطبيعي يتمكن دوكينز من تقديم تفسيرات للعديد من القضايا المثيرة للجدل في الفكر التطوري.

نُحاول في هذا البحث الإجابة عن عدد من التساؤلات من قبيل: هل يمكن النظر إلى الرؤية من منظور الجين عند دوكينز في سياق أوسع هو سياق علم النفس التطوري وهو فرع علم النفس الذي يقوم بتفسير السلوك البشري والأوضاع الثقافية عبر توظيف البيولوجيا التطورية وعلم النفس المعرفي لاكتشاف وتصنيف وتحليل الآليات النفسية؟ ثم ما هي الانتقادات التي يُمكن أن تُوجه إلى علم النفس التطوري؟ وما هي القيمة المنهجية لهذا العلم؟

نتوقف في هذا السياق عند نقد عالم البيولوجيا ستيفن جولد Stephen Jay Gould لعلم النفس التطوري، من خلال إسهامه المتمثل في مصطلح "الفراغ الوظيفي اللاتكيفي" Spandrel، ثم نختتم هذا البحث بوضع علم النفس التطوري على محك القابلية للتكذيب لسبر أغواره والكشف عن قيمته المنهجية.

علم النفس التطوري ونظرية كل شيء

فُتن دوكينز بالقوة التفسيرية الهائلة التي توفرها التطورية عموماً، والرؤية من منظور الجين خصوصاً، وذلك إلى الدرجة التي أصبح فيها مثل عمالقة الفلاسفة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حين قاموا بتشييد أنساق فلسفية هائلة تتناول شتى مظاهر الوجود بالشرح والتفسير. لم يتقيد دوكينز بتناول الظواهر الجزئية على نحو ما نرى في الدراسات الميدانية التي تنشد التوصل إلى دلالات بعض الارتباطات الإحصائية الموجودة فعلاً على أرض الواقع، من قبيل انتشار البشرة السمراء قرب خط الاستواء لحماية الجسم من الأشعة فوق البنفسجية التي تؤدي إلى سرطانات الجلد المميتة، والشعر الجعد الذي يسمح للعرق بالبقاء على فروة الرأس وقتاً أطول، مما يؤدي إلى تبريد أكبر. وربما يتم مقارنة هذه الارتباطات بما يقابلها في أماكن أخرى مثل ما نجده لدى سكان سيبيريا حيث يشيع الأنف الصغير ليقل احتمال تجمده، على حين تعمل فتحات الأنف الضيقة على تدفئة الهواء قبل أن يصل إلى الرئتين. وعبر هذه التحويرات يقل خطر ارتفاع الحرارة في المناخ الاستوائي وانخفاضها في المناخ القطبي.

"يدعونا ريتشارد دوكينز في كتابه (الجين الأناني) للنظر إلى تلك الأسئلة والأمور الداروينية الأخرى بعين الجين، وكما تخيل آينشتين رحلة على شعاع ضوء، هذه دعوة لرحلة إلى عوالم لا يُمكن الوصول إليها لفهم أوضح للحقيقة. فهي تُصور استراتيجيات الجينات وهي تشق طريقها عبر الأجيال، عبر الزمن التطوري، فالسير الذاتية الفصيحة للجينات تخبرنا عن تصميم الانتخاب الطبيعي، فعلى عكس معظم التجارب الفكرية، ليس هذا حلاً لمشكلة واحدة مُحددة، وإنما طريقة لحل عالم الكائنات الحية بأسره، وهي طريقة

(*) باحث دكتوراه بقسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة القاهرة.

فعالة للغاية، وتتمتع بقوة تفسيرية هائلة – ولا عجب في ذلك؛ إذ إنها تفهم بدقة منطق أسلوب حل المشكلات الذي يتبعه الانتخاب الطبيعي، ومن ثم، يمكنها خلق فرضيات قابلة للاختبار. إنه يتمتع بقوة تنبؤية مُذهلة ويُقدر الأدلة الواضحة التي غير ذلك لا تحظى بتقدير، إنه يحول نظرتنا للمألوف، ويحول إلى أسئلة ما كان يُعد – دون تفكير – إجابات، ويكشف عن عوالم لم نكن نحلم بها ، وينبهنا إلى عوالم مناقضة للمنطق، ويزيل الالتباس، حتى المترسخ منه الذي يأبى الانجلاء." (١)

لا يكتفي دوكينز بما تُفسره الرؤية من منظور الجين من ظواهر، ولكنه يتخطى ذلك ليُقر صراحة بأن الأنماط السلوكية التي لا يجد لها تفسيراً من منظور الجين تُمثل تحدياً بالنسبة له. ولعل هذا يوضح إلى أي مدى بلغ إيمان دوكينز بالجين الأناني إلى حد يُماثل أو ربما يفوق أصحاب الديانات برسالاتها.

"ومع ذلك فإن ثمة أنواعاً يقوم فيها الذكر فعلياً بالقسط الأكبر من رعاية الصغار بأكثر مما تفعل الأنثى. تُمثل هذه الحالات من التكريس الأبوي بين الطيور والثدييات استثناءات نادرة، إلا أنها شائعة بين الأسماك. فلماذا؟ إن هذا تحدي لنظرية الجين الأناني طالما حيرني لفترة طويلة للغاية. ثمة حل يتميز بالأصالة اقترحته علي مؤخراً الآنسة ت.ر. كارليسل." (٢)

أما حين يتناول ظاهرة غرس بعض الطيور – مثل طائر القيق Jay – لأجنحتها في أعشاش النمل أو مجرد السماح للنمل بالعبور والتخلل بين ريشها نجده يقول: "ما من أحد متأكد من فائدة الحك بالنمل Anting – ربما كانت فائدة صحية، أو لتنظيف الريش من الطفيليات، ثمة فرضيات أخرى، لا تتمتع أياً منها بأدلة قوية. إلا أن عدم اليقين بشأن التفاصيل لن يوقف – ولا يجب أن يوقف – الداروينيين عن أن يفترضوا – وبثقة عظيمة (with great confidence) – أن ظاهرة الحك بالنمل يجب (must) أن يكون لها هدف ما." (٣)

لقد انطلق دوكينز من وقائع تطورية محددة لينسج رواية متكاملة تقدم رؤية شاملة لا يعزب عنها مثقال ذرة، لتُفسر شتى مظاهر الحياة. من هنا فإن دوكينز كان يقوم بطرح أسئلة تأسيسية ربما لم يكن في حاجة إلى طرحها لو لم يلتزم بتقديم رؤية شاملة، فحين يُناقش مسألة الصراع بين الجنسين نجده يطرح السؤال التالي: ما هو الذكر وما هي الأنثى؟ ثم لماذا نحن أصلاً بإزاء نوعين وليس نوعاً واحداً؟ ناهيك بالطبع عن قصة بدء الخلق والحساء الأولي الذي قام بدور البوتقة التي خرجت منها الحياة إلى الوجود. لعل هيلينا كرونين قد أصابت كبد الحقيقة حين وصفت دوكينز بأنه يُحيل إلى أسئلة ما كان يُعد – دون تفكير – إجابات.

من الجدير بالذكر هنا أن دوكينز حين يقوم بطرح أسئلته التأسيسية وتقديم رؤيته الشاملة، لا يُغرد منفرداً خارج السرب، بل هو يُعبر عن اتجاه متنامي داخل البيولوجيا التطورية؛ وهو علم النفس التطوري، وهو اتجاه يوجه إليه النقد بل والاتهام بأنه قد أحال التطورية إلى ديانة، وهو النقد الذي نحاول تتبع خطوطه الرئيسة في الصفحات التالية.

---

(١) هيلينا كرونين، نظرة جديدة لمعركة الجنسين، عن: آلان جرافن ومارك ريدلي، ريتشارد دوكينز... عالم غير أفكارنا، ترجمة: زينب حسن البشاري، هبة نجيب السيد مغربي، كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨، ص٢٨.

(2) Dawkins, Richard, The Selfish Gene, Oxford University Press, 1989, Op. Cit., p.155.

(3) Dawkins, Richard, The God Delusion, Mariner Books, New York, 2008, Op. Cit., p.164.

فعلى الرغم من أن دراسة الحيوان قديمة قدم النصوص المكتوبة، ولا ننسى تقسيم أرسطو الهرمي للكائنات من البسيطة إلى المعقدة؛ فإن الدراسة المنهجية للحيوان وسلوكه بخاصة على يد لامارك ثم داروين شكلت نقطة تحول محورية في هذا الحقل. ورغم ذلك فإنه لا مفر من القول بإن عقد الثلاثينيات من القرن العشرين قد شهد البداية الحقيقية لعلم سلوك الحيوان Ethology بمفهومه المعاصر، مع أبحاث نيكولاس تينبرجن وكونراد لورنز وكارل فون فريش. يهتم علم سلوك الحيوان بدارسة أنماط سلوكية معينة من قبيل العدوانية أو الغيرية في عدد من الأنواع المختلفة.

انبثق عن علم سلوك الحيوان تيار جارف من الدراسات عُرف لاحقاً بعلم النفس التطوري. يعرفه قاموس كامبريدج للفلسفة على أنه "فرع علم النفس الذي يقوم بتفسير السلوك البشري والأوضاع الثقافية عبر توظيف البيولوجيا التطورية وعلم النفس المعرفي لاكتشاف وتصنيف وتحليل الآليات النفسية ... يؤكد علماء النفس التطوريون على أن الظواهر السيكولوجية تعكس تأثير التطور البيولوجي"[٤].

إلا أن قاموس كامبريدج يلخص الفارق بين علم النفس التطوري والبيولوجيا الاجتماعية في أن الأول لا يقنع بالتفسيرات التطورية وحدها للسلوك البشري، على حين تلجأ البيولوجيا الاجتماعية مباشرة إلى التطور البيولوجي.

الواقع أنه ثمة وشائج قُربى بين الدراسات التطورية والدراسات النفسية. فكثيراً ما يكون – على سبيل المثال – ثمة أبعاد معرفية للمسائل التكيفية. فإذا كان التطور قد انتخب سلوك من قبيل مساعدة الأقارب فإن هذا يفترض القدرة على تعرف هؤلاء الأقربين.

ولكن إذا كان علماء النفس التقليديون يدرسون الآليات النفسية الكامنة خلف أفعال الفرد، فإن علماء النفس التطوريون يؤمنون بأن هذه الآليات ما هي إلا أنماط تكيفية ناتجة عن الانتخاب الطبيعي.

بوسعنا أن نُشير إلى علامات بارزة في ذلك التيار الجارف لدراسات علم النفس التطوري على النحو التالي:

- في عام ١٩٦٢ قدم واين إدواردز Wynne Edwards "توزيع الحيوان بالإشارة إلى السلوك الاجتماعي".
- وفي عام ١٩٦٤ قدم هاميلتون W.D. Hamilton بحثه عن اللياقة الشاملة.
- وفي عام ١٩٦٦ نشر ج.س. ويليامز G.C. Williams كتابه "التكيف والانتخاب الطبيعي"، وذهب فيه إلى أن الانتخاب الطبيعي عملية تحدث على مستوى الفرد وليس الجماعة، وفي العام نفسه نشر كونراد لورنز Konrad Lorenz كتابه (عن العدوان).
- وفي الستينيات والسبعينيات ظهرت أبحاث جون مايناردسميث John Maynard Smith رائد تطبيق الرياضيات على مفهوم اللياقة عند الحيوان وارتباطه بسلوكه وسلوك غيره من الحيوانات.
- وفي عام ١٩٧٠ قدم روبرت أردري "العقد الاجتماعي: بحث شخصي في المصادر التطورية للنظام والفوضى". قام أردري ببحث سلوك الحيوان ثم مقارنته بسلوك الإنسان باعتبارهما ظواهر متماثلة.

(4) Audi, Robert, The Cambridge Dictionary of Philosophy, 2nd Edition, Cambridge University Press 1999, p.295.

- وفي عام ١٩٧١ قدم روبرت تريفرز أفكاراً جديدة عن الغيرية المتبادلة والاستثمار الأبوي في كتابه "الغيرية المتبادلة".
- ثم ظهر كتاب ويلسون "البيولوجيا الاجتماعية: التركيبية الجديدة" في عام ١٩٧٥، ليُمثل أقوى تجسيد لهذا الاتجاه حتى صارت البيولوجيا الاجتماعية في العديد من الكتابات مرادفة لعلم النفس التطوري.

والواقع أن كل هذا الحراك السابق من الدراسات التجريبية والأبحاث النظرية لا يُمكن النظر إليه بمعزل عن ثورة البيولوجيا الجزيئية في خمسينيات القرن العشرين التي جاءت واعدة بتقديم تفسير للحياة على أكثر مستوياتها الفيزيوكيمائية جذرية؛ اللولب الحلزوني للدنا. فيما ساد اعتقاد مفاده أن العلماء قد اكتشفوا الشفرة التي كُتب بها كتاب الحياة، وما هي إلا سنوات قليلة ويصير بوسع العلماء قراءة هذا الكتاب، وتجسدت هذه الآمال في مشروع دولي هائل هو مشروع فك شفرة الجينوم البشري.

يقول المدير السابق لمشروع الجينوم البشري والفائز بجائزة نوبل، جيمس واطسون، إن الدنا هو ما يجعلنا بشراً، وأن مصيرنا تحدده – بشكل كبير – جيناتنا.

لقد بلغ الافتتان بهذا اللولب الحلزوني باعتباره سر الحياة مداه، حتى قال أحد الباحثين: "بالنظر إلى أدواره الأساسية فيما يتعلق بالأصل، والتطور، وحفظ الحياة، فإنه لأمر مغري أن نتساءل إذا ما كان هذا الخيط من السكر الحلزوني المكون من قواعد من البيورين والبيريميدين هو – في واقع الأمر – الإله." (٥)

على هذا النحو يرى البعض أن علم النفس التطوري قد أحال التطورية إلى ديانة. وحتى لا يكون حديثنا مُرسلاً، فإنه من الأهمية أيضاً أن نُعرف المقصود بالدين في هذا السياق. تتنوع تعريفات الدين باختلاف الزاوية التي ينظر منها الباحث إلى هذه الظاهرة، وإذا كانت بعض التعريفات تُركز على أهمية الممارسات والشعائر والخبرة الدينية، فإن التعريفات الأوسع تهتم بإبراز دور الدين في إقامة اللُحمة بين أفراد جماعة مُعينة وإمداد أفرادها بإطار مرجعي ما، يُعد إريك فروم **Erich Fromm** (١٩٠٠–١٩٨٠) من أشهر من قدموا لهذا التعريف الأشمل، حيث يذهب في كتابه "التحليل النفسي والدين" إلى أن الدين هو أي مذهب للفكر والعمل تشترك فيه جماعة ما، ويعطي للفرد إطاراً للتوجيه وموضوعاً للعبادة*.

لا تبتعد دوروثي نيلكين كثيراً عن هذا السياق حين تقرر أن: "الدين نظام للاعتقاد يتضمن فكرة وجود مبدأ أزلي قام بخلق العالم، وحكمه وتحديد مصائره أو التدخل في المسار الطبيعي لتاريخه." (٦)

---

(5) Gregory Stephen Henderson, "Is DNA God?," The Pharos, Journal of the Alpha Omega Alpha Honor Medical Society (Winter 1988), pp.2-6, from:
Rose, Hilary & Stephen, Alas, Poor Darwin, Arguments Against Evolutionary Psychology, Harmony Books, 2000, p.31.

* أنظر:

Fromm, Erich, Psychoanalysis and Religion, New Haven, CT, United States: Yale University Press, 1950.

(6) Nelkin, Dorothy, Less Selfish Than Sacred? Genes and the religious impulse in evolutionary psychology, from: Ibid., p.18.

وتُعقب نيلكن على هذا التعريف بقولها: "إن المؤمنين يفهمون هذا المبدأ الأزلي – سواء كان إله أو فكرة قوية – بوصفه مفتاحاً للولوج إلى المعرفة بأسرها، وتفسير التاريخ، والقائم بتوجيه السلوك في الحياة اليومية." (٧)

من هنا "لا يلزم أن تكون مثل هذه المعتقدات إيمانية، كما لا يجب أن تتأسس بالضرورة على وجود إله أو كيان روحي. إلا أنها تتبع نمط تفكير ديني يرى العالم من خلال مبادئ كونية، ونظام وغاية قصوى."(٨)

ولعل عالم البيولوجيا الشهير إدوارد نيلسون كان ممن ساروا عبر هذا الدرب إلى منتهاه حين قال:

"يتعين على البشر أن ينسبوا أنفسهم إلى قبيلة؛ إن بداخلهم شوقاً لوجود غرض أكبر من ذواتهم. إننا مدفوعين من أعمق أعماق الروح الإنسانية لكي نجعل من أنفسنا شيئاً أكبر من مجرد تراب متحرك، كما أنه ينبغي أن تكون لدينا قصة لنرويها عن من أين أتينا، ولماذا نحن هنا؟ هل يُمكن للنصوص المقدسة أن تكون المحاولة المكتوبة الأولى فحسب لتفسير الكون ولإكسابنا أهمية بداخله؟ ربما يمثل العلم متصلاً قائم على أرضية جديدة يمكن اختبارها بشكل أفضل من أجل الوصول إلى الغاية نفسها. ولو كان الأمر على هذا النحو فإن العلم بهذا المعنى يصير آنئذ ديناً متحرراً ويتمتع بالوضوح الذاتي." (٩)

وإذا كان العلم قد استحال على يدي ويلسون إلى دين متحرر فلن يكون من المستغرب أن يتحالف العلم مع الميتافيزيقا: "يقدم العلم أجرأ ما في ميتافيزيقا العصر. إنه بناء إنساني شامل، يدفعه الإيمان بأننا إذا ما حلمنا، فعلينا أن نكتشف، ونُفسر، ونحلم مجدداً، ونحط – من ثم – بشكل متكرر على بقاع جديدة، سيصير العالم بشكل ما أوضح وسنفهم الغرابة الحقيقية للكون. وسيثبُت أن ثمة علاقة تربط الأمور الغريبة بشكل مفهوم."(١٠)

أما من لازالت تعتري وجهه قسمات الدهشة من "أجرأ ما في ميتافيزيقا العصر"، فلعله يظن الفقرة التالية لنيلكن في حديثها عن المشتغلين بعلم النفس التطوري مقتبسة من إحدى كتابات اللاهوت الطبيعي في القرن التاسع عشر.

"إنهم ينقلون صورة لهذه البنية الجزيئية بوصفها شيئاً يتعدى مجرد كونها كياناً بيولوجياً مفعماً بالقوة: إنها أيضاً قوة غامضة تقوم بتعريف النظام الطبيعي والأخلاقي. كما يقدمون فكرة حول الحتمية الجينية، مع اقتراح أنه عن طريق فك شفرة النص الجيني سيكون بوسعهم إعادة تأسيس جوهر الوجود البشري، وسبر أغوار الطبيعة البشرية." (١١)

ينشد هؤلاء السيكولوجيون التطوريون تناول مسائل أساسية حول المعنى والمبادئ القصوى لتفسير الطبيعة. فيما يُمثل المبدأ القائل بأن كلاً من الطبيعة البشرية والسلوك البشري تحكمهما العمليات التطورية الخاضعة للانتخاب الطبيعي؛ الدعامة الأساسية لهذا الاتجاه الذي تضع نيلكن إدوارد ويلسون وريتشارد

(7) Ibid., p.18.
(8) Ibid., p.21.
(9) E.O. Wilson, Consilience: The Unity of Knowledge, New York, Knopf, 1998, p.6&7.
(10) Ibid., p.12.
(11) Nelkin, Dorothy, Less Selfish than Sacred, Op. Cit., p.22.

دوكينز على رأس دعاته. إن نظرة واحدة على أعمال ويلسون (البيولوجيا الاجتماعية) ١٩٧٥، و(عن الطبيعة البشرية) ١٩٧٨، و(التساوق: وحدة المعرفة) ١٩٩٨ تكشف عن هذا المبدأ الحاكم.

"إنه يزعم أن الممارسات الفردية والثقافية، بما فيها انتخاب الأقرباء، والاستثمار الأبوي، واستراتيجيات التزاوج، والسعي من أجل المكانة، والدفاع عن الأرض والتوسع فيها، والاتفاقات التعاقدية محكومة كلها بالسعي لإعطاء ميزة داروينية للجينات. إنه يعتقد أن المبدأ الخالد للانتخاب الطبيعي يقوم بتشكيل سلوكنا، ودوافعنا الأخلاقية، والعلاقات الإنسانية، والمعايير الثقافية." (١٢)

من هنا فقد طرح ويلسون في إحدى محاضراته أن سلوك الإنسان متلائم مع منظور الداروينية وأن العلوم الاجتماعية يجب أن تتهيأ للعمل مع البيولوجيا في هذا المسعى.

"فمن منظور علماء البيولوجيا ليس علم الاجتماع أكثر من دراسة سلوك الحيوان بالتركيز على نوع واحد، وهو النوع البشري. لكن هذه النظرة لا تروق لعلماء الاجتماع، ومن ثمّ فإن مقترحات العمل في إطار متحد لم تلق الترحيب من قبل هؤلاء، حتى أن أحد خصوم ويلسون الحانقين قام بصب الماء البارد على رأس ويلسون عقب إلقائه محاضرته." (١٣)

أما ريتشارد دوكينز فيُمثل بكل ما كتب الرؤية الأكثر جذرية في التعبير عن هذا الاتجاه.

"يتباهى بعض البيولوجيين الاجتماعيين مثل ريتشارد دوكينز بكونهم ماديين، واختزاليين ومعادين للدين بشكل صريح. إلا أنهم يقدمون نظريات يزعمون بها أن الأساس التطوري للسلوك البشري يُفسر فعلياً كل شيء، بوصفه الأساس لقيام وحدة المعرفة." (١٤)

من هنا يحق لنا القول: "إن البيولوجيا الاجتماعية والسيكولوجيا التطورية ما هي إلا أحدث الجهود نحو صياغة نظرية موحدة تُفسر معنى الحياة نفسها." (١٥)

كما يصبح الانتخاب الطبيعي والحال كذلك هو نظرية كل شيء.

"تُفسر نظرية الانتخاب الطبيعي – في زعمهم – لم ينخرط الأفراد في مثل هذه الأنماط السلوكية المُعقدة من قبيل الحب والغيرة والمخاطرة والخيانة والاغتصاب والبحث عن المكانة والعنف والإدمان ... فالانتخاب الطبيعي بالنسبة للسيكولوجيين التطوريين هو نظرية كل شيء، مبدأ ثابت يُفسر لماذا نسلك على هذا النحو وما الذي يجعلنا على ما نحن عليه، إنه يُعرف معنى الوجود الإنساني نفسه." (١٦)

لاشك أن جزءاً من سمعة السيكولوجيا التطورية يرتكز على نجاح البيولوجيا الجزيئية في عزل الأمراض الجينية، وهو ما يُنبئ بإمكانية نجاح المركزية الجينية في المساعدة على فهم المزيد من الأنساق الأكثر تعقيداً للعقل والسلوك. إلا أن النجاح في الحقل الطبي للتعامل مع أمراض البشر لا يعني دائماً أن ثمة مشروعية لصياغة نظريات بشأن سلوك البشر أفراداً ومجتمعات.

"إنهم يبالغون في إضفاء أهمية روحية على الجين بوصفه شيئاً مقدساً ومفعما بالقوة – كياناً ضرورياً وخالداً يمكن من خلاله تفسير وفهم حياة الإنسان وتاريخه ومصيره. إنهم يذهبون بعيداً في معاملة الجينات

---

(12) Ibid., p.18.

(١٣) فرانس دي فال، نهاية المواجهة بين الطبع والتطبع، مجلة العلوم، نوفمبر–ديسمبر ٢٠٠٢، المجلد ١٨.

(14) Nelkin, Dorothy, Less Selfish than Sacred, Op. Cit., p.19.

(15) Ibid., p.19.

(16) Ibid., p.20.

بوصفها وسيلة لاكتشاف الأسئلة الجذرية حول الحياة الإنسانية، وتعريف جوهر الوجود الإنساني ولتصور الخلود." (١٧)

"إن المتخصصين بعلم النفس التطوري مبشرون، يدافعون عن مجموعة من المبادئ تُعرف معنى الحياة، وينشدون تحويل الآخرين للإيمان بمعتقداتهم. إنهم على قناعة بأنهم يحظون ببصيرة لفهم الحالة الإنسانية، وهو ما ينبغي قبوله كحقيقة." (١٨)

"يستخدم العلماء القائلون بالتفسيرات الجينية لغة حافلة بالاستعارات والمفاهيم الدينية من قبيل الخلود والحتمية – وفي واقع الأمر فإن الجين يبدو بوصفه نوعاً من (الروح) المقدسة. وبوصفهم مبشرين يوضحون الحقيقة لمن يعيشون في ظلمات الجهل؛ فإنهم يزعمون أن نظرياتهم إرشادات إلى الفعل الأخلاقي والأجندات السياسية. إنني أزعم أنهم جزء من حركة ثقافية حالية لإذابة التخوم بين العلم والدين." (١٩)

ولعل المفارقة تتضح أكثر ما تتضح عند دوكينز عدو الدين اللدود:

"إنه (دوكينز) يذهب إلى أن فكرة الغاية العليا وهم، وأن الدين قضية منتهية الصلاحية. ومع ذلك يعثر دوكينز على الغاية القصوى من الوجود الإنساني – نشر الجينات." (٢٠)

وإذا كان دوكينز صاحب الموعظة الشهيرة "ماذا يُفيد الذكر إذا ما ربح العالم، وخسر جيناته الخالدة؟"(٢١)، قد اتبع فيها إحدى مواعظ الإنجيل من قبيل البلاغة*، فإن الكثير من جوانب رؤيته تُعد لاهوتية بالفعل:

"إن اختزالية دوكينز المتطرفة، التي يظهر فيها الدنا بوصفه خالداً، والجسد الفردي بوصفه محدوداً إلى أقصى درجة، هي من جوانب كثيرة رواية لاهوتية: فأشياء هذا العالم (الجسد) لا تهم، بينما تبقى الروح (الدنا) إلى الأبد." (٢٢)

نـقد جولد لعلم النـفس التـطوري

تكتسب الانتقادات الموجهة إلى علم النفس التطوري أهمية مضاعفة حين تأتي من أحد علماء الإحاثة والبيولوجيا التطورية وهو ستيفن جولد **Stephen Jay Gould** (١٩٤١–٢٠٠٢) وصاحب العديد من الاسهامات الهامة في مجال الدراسات التطورية؛ وهو صاحب نظرية التوازن المتقطع.

ينتقد جولد تلك الاختزالية المفرطة التي تشيع بين أنصار علم النفس التطوري:

"إن التكيف المُباشر يُعبر عن نمط واحد من الأصل التطوري. ففي نهاية المطاف – أجدني أيضاً أملك حلمات في صدري، ليس لأنني أحتاجها، ولكن لأن النساء يحتجنها، ولأن كل البشر يتشاركون في المسارات الأساسية نفسها للنمو الجنيني." (٢٣)

---

(17) Ibid., p.23.
(18) Ibid., p.23.
(19) Ibid., p.19.
(20) Ibid., p.21.
(21) Dawkins, Selfish Gene, Op. Cit., p.162.

* "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كلّه وخسر نفسه أو أهلكها" لوقا ٩:٢٥

(22) Nelkin, Dorothy, Less Selfish than Sacred, Op. Cit., p.23.
(23) Gould, Stephen Jay, More Things in Heaven and Earth, From: Rose, Hilary & Stephen, Op. Cit., p.122.

إن آفة علم النفس التطوري هي الإصرار على رؤية كل الوظائف وأنماط السلوك باعتبارها تكيفية adaptive :

"ينشأ الخطأ الكامن في صلب التكيفية عن الإخفاق في إدراك أنه حتى بالنسبة لأكثر عمليات الانتخاب الطبيعي الخالص مباشرة، فإنها تقوم ببناء كائنات مليئة بالأجزاء وأنماط السلوك غير التكيفية."(٢٤)

يُقدم جولد مفهومه عن الفراغ الوظيفي اللاتكيفي 'Spandrel'، وكلمة (Spandrel) في الأساس مصطلح معماري يعني الفراغ الناتج عن التقاء العقود المعمارية بالأسقف. فقد كان المعماري الذي يقوم بتصميم الكنائس والمباني الهامة في الحقبة الرومانية يقوم بتصميم الأقواس ونقشها بالنقوش، إلا أنه يجد لاحقاً أن ثمة فجوة متخلفة عن هذا التصميم نتيجة التقاء القوس بالسقف، فما يلبث أن يستغلها لنقش المزيد من النقوش وعمل المزيد من الزخرفة. استمر استخدام المصطلح في حقل العمارة حتى الآن ليصف الفراغات الخلفية الناتجة عن التكوينات المعمارية المختلفة. قام ستيفن جولد بإدخال هذا المصطلح إلى البيولوجيا التطورية ليعني المنتج الثانوي غير التكيفي الناتج عن عملية تكيفية.

"تطورت سائر الكائنات الحية ككل مُعقد متصل، لا كائتلاف مُفكك من الأجزاء المنفصلة، وقد قام الانتخاب الطبيعي بتعظيم كل منها بشكل مستقل. إن أي تغير تكيفي ينبغي أن يولد أيضاً – إضافة إلى ذلك – مجموعة من الفراغات الوظيفية اللاتكيفية spandrels أو المنتجات الثانوية غير التكيفية. قد تلائم هذه الفراغات لاحقاً استخداماً ثانوياً. إلا أننا نرتكب خطأً منطقياً فادحاً إذا ما ذهبنا إلى أن هذه الاستخدامات الثانوية تُفسر وجود الفراغ الوظيفي اللاتكيفي." (٢٥)

يضرب جولد مثالاً لهذه الفراغات في صورتها الأصلية (المعمارية) بوجود فراغ في سقف الغرفة بين الأعمدة الحاملة، ثم قيامه باستغلاله لهذا الفراغ لكي يضع فيه عصا (البوميرانج)*، ورغم أن المكان قد يبدو ملائماً لاحتواء العصا بشكل مثالي، إلا أن القول بإن تصميم سقف الغرفة بهذا الشكل لخلق مكان لعصا البوميرانج سيبدو أمراً عبثياً.

أما المثال الذي يطرحه جولد لهذه الفراغات الوظيفية اللاتكيفية (بيولوجياً) فهو الرخويات التي تقوم باستخدام فجوة الصدفة التي على ظهرها من أجل وضع البيض، فهذا مُجرد ناتج ثانوي لهذا الفراغ وليس لهذه الوظيفة أي دلالة تكيفية بدليل أن الغالبية الساحقة من الرخويات لا تقوم بهذا الاستخدام لتلك الفراغات.

علم النفس التطوري والقابلية للتكذيب:

إن تقديم علم النفس التطوري بوصفه نظرية كل شيء والوصفة القابلة للتطبيق وتفسير شتى مظاهر السلوك، إنما يذكرنا بنظريات أخرى طموحة ظهرت في مجال علم النفس وأصبحت بمثابة صرعة غالبة تصبغ علم النفس بأسره بصبغتها من قبيل نظرية التحليل النفسي لفرويد.

(24) Ibid., p.123.
(25) Ibid., p.123.

* عصا ذات شكل ملتوي كان يستخدمها سكان استراليا الأصليون في الصيد ويتم حالياً استخدامها للعب، وتُعد أحد الأيقونات الاسترالية الشهيرة.

إلا أن الدرس المنهجي الذي علمنا إياه بوبر هو أن هذا النوع من النظريات رغم كل الهالة المحيطة به عادة فإنه يفشل في أن يتخطى معياره الأثير؛ القابلية للتكذيب.

وكان بوبر قد تمكن بفضل معيار القابلية للتكذيب من إحراز نتائج بعيدة المدى تمثلت في إماطة اللثام عن الأهمية الحقيقية للعديد من النظريات التي طالما شغلت الساحة العلمية دون أن تكون لها قيمة علمية حقيقية ؛ وعلى سبيل المثال فهناك الماركسية والتحليل النفسي وعلم النفس الفردي . يعنينا هنا مجال علم النفس وبالتحديد تطبيق معيار بوبر على إسهامات فرويد وآدلر.

"يقوم نسق التحليل النفسي **Psychoanalysis** على أساس افتراض أن الشخصية تتنازعها ثلاث مكونات هي: الهو؛ وهو نظام الشخصية الأصلية، ويتكون من كل ما هو موجود وموروث سيكولوجياً منذ الولادة كالغرائز. ثم هناك الأنا ويقوم بالتعاملات المناسبة مع العالم الموضوعي الخارجي، متميزاً عن الهو بأنه يفرق بينها وبين الأشياء التي توجد في العالم الداخلي. فهو الجهاز الإداري للشخصية الذي يسيطر على منافذ الفعل والسلوك، ويختار من البيئة الجوانب التي يستجيب لها، ويقرر الغرائز التي سوف تشبع والكيفية التي يتم بها ذلك الإشباع. وهو يحقق أهداف الهو ولا يحبطها لأنه يستمد قوتها منها. ثم يأتي الأنا الأعلى، وهو الممثل الداخلي للقيم التقليدية للمجتمع والأخلاق والمثل العليا، ويقوم هذا المكون بالعمل على كف دوافع الهو ذات الطابع الجنسي والعدواني والعمل على بلوغ الكمال فيعارض الهو والأنا معاً، إذ لا يحاول إرجاء إشباع الغريزة فحسب كالأنا، بل يحاول الحيلولة دون هذا الإشباع على الدوام"([٢٦]) .

"أما علم النفس الفردي **Individual Psychology** فقد قام ألفرد آدلر بتأسيسه كمحاولة لتدارك قصور نظرية التحليل النفسي عن إدراك حقيقة كون الإنسان شخصية اجتماعية أكثر منها بيولوجية. أكد آدلر على أهمية الحوافز الاجتماعية كمحرك أول لسلوك الإنسان، فالإنسان في نظره كائن اجتماعي أولاً وقبل كل شيء. وتعتبر فكرة آدلر عن الذات الخلاقة أعظم اسهاماته، إذ تمثل عنده نظاماً شخصياً وذاتياً للغاية يفسر خبرات الكائن العضوي ويعطيها معناها، فالذات تبحث عن الخبرات التي تساعد على تحقيق أسلوب الشخص الفريد في الحياة، وإذا لم توجد هذه الخبرات في العالم فإن الذات تحاول خلقها. إلا أن أهم المآخذ على آدلر هو تأكيده المبالغ فيه على مشاعر النقص والتعويض التي طورها لتشمل مشاعر النقص بصفة عامة، الفيزيقي والسيكولوجي، كما افترض أنها قائمة في كل شخصية، وأنها ليست علامة على الشذوذ بل سبب كل ما يحققه الإنسان من تطوير"([٢٧]) .

وقد تمكنت هاتان النظريتان لما لهما من قوة تفسيرية واسعة من الاستحواذ على الاهتمام الشديد من قبل العلماء والعامة على حد سواء، فقد بدت كل منهما كما لو كانت أنموذجاً للنظرية الكاملة التي تشرح كل شيء وتفسر كل شيء. وعلى حين يمثل ذلك ظاهرياً موطن قوة، فإن مثل هذه النظريات تتضاءل حين تتموضع تحت عدسة ذلك المجهر البوبري .

([٢٦]) يمنى طريف الخولي، فلسفة كارل بوبر؛ منهج العلم ... منطق العلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠٣، ص٤٤٩ .

([٢٧]) عن المرجع السابق (بتصرف)، ص٤٥٠ ، ٤٥١ .

"فليس التحليل النفسي ولا علم النفس الفردي علوماً على وجه الإطلاق، وليس لهما من السمة العلمية أي نصيب، لأنهما ببساطة نظريات غير قابلة للتكذيب إطلاقاً، وليس لهما أية فئة مكذبات محتملة. فليس ثمة أي سلوك إنساني يمكن أن يعارضهما، وبالتالي ليس ثمة أي سلوك إلا ويمكن تفسيره وفقاً لمصطلحات هاتين النظريتين. والمثال الذي ضربه بوبر على هذا هو رجل يدفع بطفل إلى الماء بقصد إغراقه، ثم رجل آخر يضحي بحياته محاولاً إنقاذ الطفل، كل من هذين السلوكين المتناقضين يمكن تفسيره بنفس السهولة وفقاً لمصطلحات نظرية فرويد وأيضاً وفقاً لمصطلحات نظرية آدلر. فتبعاً لفرويد يمكن أن نفسر موقف الرجل الأول بأنه يعاني من الدوافع المكبوتة ، مثلاً بإحدى مركبات عقدته الأوديبية أو النزوعات العدوانية، أما الرجل الثاني فنفسر سلوكه بنفس الدوافع المكبوتة ولكنها في حالة إعلاء وتسام. وطبقاً لنظرية آدلر يعد الرجل الأول يعاني من شعور بالنقص سبب له الرغبة في إثبات جرأته على ارتكاب جريمة ما، ونفس الشعور بالنقص سبب للرجل الثاني الرغبة في إثبات جرأته على إنقاذ الطفل. على هذا النحو نجد النظريات التحليلية دائماً يمكن تطبيقها. دائماً يمكن تأكيدها. تفسر كل شيء وتشرح كل شيء. ولو جاء رجل ليؤكد أنه لم يشعر إطلاقاً بعقدة أوديب ولم يصدر عنه أي سلوك ينم عنها – وهذا ما لابد أن يؤكده أكثر من ٩٩% من الأسوياء – فلن يعتبر التحليليون هذا تفنيداً لنظرياتهم. بل على الفور سيتملصون من هذا التكذيب بأن عقدة أوديب مكبوتة في اللاشعور. والنظرية بهذا غير قابلة للاختبار، وبالتالي غير قابلة للتكذيب. إذ يمكن على هذا النحو إدخال كل الأحداث الممكنة وكل الوقائع الممكنة وكل النماذج السيكولوجية الممكنة في نطاق هذه النظريات، بل وكتأكيدات لها"[٢٨] .

ولعل تفسير واقعتين متناقضتين على النحو السابق يستدعي إلى الذهن تفسير علم النفس التطوري للأنانية باعتبارها سعياً طبيعياً للكفاح من أجل البقاء، ثم تفسير الغيرية بالتفسير نفسه مع إدخال بعض المتغيرات الأخرى على نحو ما رأينا في القرارات التفاضلية التي يتخذها الكائن وفق درجة القرابة مثلاً واحتمالات زيادة نسبة جيناته في المستودع الجيني.

من ناحيته يذكر ستيفن جولد النموذج الفرويدي صراحة في معرض نقده لعلم النفس التطوري:

"إذا ما استمر علماء النفس التطوريون في الدفع بنظرية الاستثمار الأبوي بوصفها عقيدة مركزية، فإنها سوف يعانون فعلياً من مصير أتباع فرويد، الذين كانت لديهم بعض الاستبصارات الجيدة، ولكن فشلها كان مدوياً، مع ما ألحقته بملايين البشر من ضرر خطير." [٢٩]

مرة أخرى، فإنها تلك الاختزالية التي تزعم لنفسها امتلاك المفتاح الواحد الذي سيفض كل المغاليق:

"لماذا ينبغي فهم مثل هذا العالم المُعقد والمتنوع في حدود فهم ضيق كنتيجة لسبب واحد معين؟ دعونا نمتلك وفرة من الروافع، بعضها أكثر أهمية وعمومية، والأخرى خاصة بأشياء معينة – ولكن مع خضوعها جميعاً للفهم العلمي، وعملها كلها بشكل مفهوم." [٣٠]

([٢٨]) المرجع السابق نفسه، ص٤٥١، ٤٥٢ .

([29]) Gould, Stephen Jay, More Things in Heaven and Earth, From: Rose, Hilary & Stephen, Op. Cit., p.122.

([30]) Ibid., p.125.

رأينا المأزق الذي وضع فيه أنصار علم النفس التطوري أنفسهم فيه، بأن حاولوا – وعلى رأسهم دوكينز – تقديم رؤية شاملة تتباهى بما له من قوة تفسيرية هائلة، بحيث لا تترك لا شاردة ولا واردة إلا وقدمت أراءها بشأنها. عرضنا أيضاً لنقد ستيفن جولد لعلم النفس التطوري، وهو النقد الذي يكتسب أهمية وثقلاً من حيث أنه قد جاء من عالم في سلوك الحيوان له وزنه ومكانته. ثم ختمنا هذه المناقشة بوضع علم النفس التطوري على محك القابلية للتكذيب آملين في أن يكون ذلك قد ألقى ضوءاً كاشفاً على بعض الجوانب المعتمة التي قد يفوت البعض أهمية إدراك معالمها وسط ما يُحدثه أنصار علم النفس التطوري من جلبة وصخب.

مراجع البحث:

1. **Audi, Robert, The Cambridge Dictionary of Philosophy, 2nd Edition, Cambridge University Press 1999.**
2. **Dawkins, Richard, The Selfish Gene, Oxford University Press, 1989.**
3. **Dawkins, Richard, The God Delusion, Mariner Books, New York, 2008.**
4. **Rose, Hilary and Rose, Steven; Alas, Poor Darwin, Arguments Against Evolutionary Psychology, Harmony Books, New York, 2000.**
5. **Wilson, E.O., Consilience: The Unity of Knowledge, New York, Knopf, 1998.**

٦. آلان جرافن ومارك ريدلي، ريتشارد دوكينز... عالم غير أفكارنا، ترجمة: زينب حسن البشاري، هبة نجيب السيد مغربي، كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨.

٧. فرانس دي فال، نهاية المواجهة بين الطبع والتطبع، مجلة العلوم، نوفمبر–ديسمبر ٢٠٠٢، المجلد ١٨.

٨. يمنى طريف الخولي، فلسفة كارل بوبر؛ منهج العلم ... منطق العلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠٣.